الإشارة

إلى بعض أحكام الإمارة



لشيخ الثغر:

أبي المنذر المدني

-فرج الله عنه-

رواق الحكمة

رواق الحكمة للإعلام

rawaq alhekmah

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصـلاة والسـلام على إمام المرسـلين وعلى آله وأصـحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن من نعم الله العظيمة على أمة الإسلام، أن أقام لها الخلافة بعد قرون من الشتات والضياع، وعقود من الذل والاستعباد.

في زمان تسلَّط فيه الكفار والمرتدون على رقاب المسلمين، وفتنوهم عن دينهم، فاندرست معالم التوحيد، وضرب الشـرك بأطنابه في الأرض، فلم يَعُد للمسلمين إمامٌ يحكمُهم، ولا دولةٌ تجمعُهم وتهتم بأمور دينِهم ودنيَاهم وتحكُم فيهم بشرع الله.

ولمَّا عاشَ المسلمون فترةً طويلةً يُساسُون بشـــريعةِ الطَّاغوت، وتُفرض عليهم قوانين الكفر، كان لزاماً علينا في دولة الإسلام أن نتعلَّم الأحكام السلطانية، والسياسة الشـرعية، حتى نحكم الناس بشـرع الله، ونسوسهم بدين الله، فنقيم فيهم التوحيد والعدل، ونمنعهم من الشـــرك، ونرفع عنهم الجهل، وندفع عنهم الظلم.

وهذه رسالة مختصرة في بعض أحكام الإمارة، وأهمِّ الأخلاق التي يجب أن يتصف بها الأمراء، لعلها أن تساهم في تحقيق المقاصد الشرعية من الإمارة والولاية.

وقد قسمتها إلى بابين رئيسين:

الباب الأول: أهم الخصال التي تستقيم بها الإمارة والولاية.

الباب الثاني: أهم الخصال التي تستقيم بها أمور الناس.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

الباب الأول

أهم الخصال التي تستقيم بها الإمارة والولاية

فصل

حاجة الناس إلى الإمارة

روى الدارمي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة".

قال ابن تيمية -رحمه الله-: يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم). [1]

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم) فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة؛ ولهذا روي: (أن السلطان ظل الله في الأرض) ويقال: (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان). والتجربة تبين ذلك.[2]

وعن أبي قلابة، عن أبي مسلم الخولاني، قال: " مثل الإمام كمثل عين عظيمة صافية طيبة، الماء يجري منها إلى نهر عظيم فيخوض الناس النهر فيكدرونه ويعود عليهم مقر العين، فإذا كان الكدر من قبل العين فسد النهر " قال: " ومثل الإمام والناس كمثل فسطاط مستقيم " أو قال: " لا يستقيم إلا بعمود، ولا يقوم العمود إلا بأطناب " أو قال: " بأوتاد، فكلما نزع ازداد العمود وهنا، فلا يصلح الناس إلا بالإمام، ولا يصلح الإمام إلا بالناس".[3]

---

[1] رواه أبو داود.

[2] مجموع الفتاوى390/28.

[3] شعب الإيمان 9/ 495.

وقال جلال الدين العدوي الشافعي -رحمه الله-: "لما كانت الرعية ضروبا مختلفة وشعوبا مختلفة متباينة الأغراض والمقاصد، مفترقة الأوصاف والطبائع، افتقرت ضرورة إلى ملك عادل يقيم عمدها، ويمنع ضررها، ويأخذ حقها ويذب عنها ما أشقها، ومتى خلت من سياسة تدبير الملك كانت كسفينة في البحر اكتنفتها الرياح المتواترة والأمواج المتظاهرة قد أسلمها الملاحون واستسلم أهلها إلى المنون.

واعلم أن الرعية تستظمىء إلى عدل الملك وتدبيره استظماء أهل الجدب إلى الغيث الوابل، وينتعشون بطلعته عليهم كانتعاش النبت بما يناله من ذلك القطر، بل الرعية بالملك أعظم انتفاعا منها بالغيث؛ لأن للغيث وقتا معلوما، وسياسة الملك دائمة لا حد لها ولا وقت.

والرعية في تباين أوصافها، كنبت الأرض، فمنه الطيب المثمر، ومنه الخبيث القاتل..، فإذا أصلحت الأرض فاسدها، وأخرج ما فيها من النبت الخبيث انتعش نبتها الطيب، وقوى أصله، ونما فرعه وطاب ثمره، وكذلك الرعية لما جاور الخبيث طيبها افتقرت ضرورة إلى ملك يصلح فاسدها، ويقمع صائلها، ويكسر شوكة أهل التعدي عليها، لتنتعش أحوالها، وتزكي أموالها، ويكثر خيرها، وتصلح أمورها.

وقد قيل: الرعية بلا وال كالأنعام بلا راع، فانظر سائمة الأنعام في مراعيها إذا خلت من راعيها، ما أشد اختلال حالها واختلاف أفعالها، بل الرعية أشد اختلالا، وأكثر اختلافا، فلا بد من زعيم يمنعهم من المظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولاه لكانوا فوضى مهملين وهمجا مضاعين". [1]

وقال كعب الأحبار: "مثل الإسلام والسلطان، مثل عمود وفسطاط، فالفسطاط الإسلام والعمود السلطان والأوتاد الناس، ولا يصلح بعضهم إلا ببعض". [2]

---

[1] المنهج المسلوك 168/1.

[2] تهذيب الرياسة 97/1.

فصل

خطورة الإمارة

الإمارة منزلة خطيرة، ودواعي النفوس إلى قبولها كثيرة، فهي غنيمة سريعة لمن نظر إليها بعين الحريص على الدنيا والشرف والسيادة، وهي منصب يدفع صاحبه إلى الكبر والتعالي والطغيان، وقلما رضع من لبانها إنسان إلا عسر عليه الفطام، وسرعان مت تمر الأيام وتتبدل الأحوال فينقلب منها المغرور إلى سوء العاقبة، وشدّة الحساب.

وأما من نظر إليها بعين الخوف والوجل، مستشعراً عظيم الأمانة، وثقل المسؤولية، وشدة الحساب يوم القيامة على الأمراء والولاة، فإنه يفر منها، حرصاً منه على سلامة قلبه، وخوفاً من تبعاتها، وإن أُلزم بها حرص على فكاك رقبته من عذاب الله بأداء حقها.

قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله-: "فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها، ويهربون من تقلدها، وذلك لما فيه من عظم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة، ويغلب النفس حب الجاه، ولذة الاستيلاء، ونفاذ الأمر، وهو أعظم ملاذ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوبة، كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه، فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقا، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلا، وعند ذلك يهلك".[(1)]

ولقد ورد في السنة وأقوال السلف ما يبين خطرها، ويحذر من عاقبة أصحابها.

روى ابن حبان بسند صحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « ويل للأمراء، ليتمنين أقوام أنهم كانوا معلقين بذوائبهم بالثريا، وأنهم لم يكونوا ولوا شيئا قط ».[(2)]

---

(1) إحياء علوم الدين 3/324.

(2) صحيح ابن حبان 10/ 335.

وعن بشر بن عاصم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنّ الوُلاة يُجاء بهم يوم القيامة، فيقفون على شفير جهنم ، فمن كان مطواعا لله تناوله الله بيمينه حتى ينجيه ، ومن عصى الله انخرق به الجسر إلى واد من نار تلتهب التهابا). فيه ضعف.(1)

وعن سعد بن عبادة -رضي الله عنه- قال : **حدثنا عن رسول الله ﷺ قال** : (ما من أمير عشرة إلا يؤتي به يوم القيامة مغلولاً، لا يفكه من غله ذلك إلا العدل).(2)

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : **قال رسول الله ﷺ** : (ما من أمير ثلاثة إلا يؤتي به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه أطلقه الحق أو أوثقه).(3)

وعن رجل من عبد القيس قال : "رأيت سلمان على حمار في سرية هو أميرها والجند يقولون : جاء الأمير جاء الامير ، قال : فقال سلمان : إنما الخير والشر فيما بعدم اليوم ، فإن استطعت أن تأكل من التراب ولا تأمر على رجلين فافعل ، واتق دعوة المظلوم فإنها لا تحجب". (4)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "ما حرص رجل كل الحرص على الإمارة فعدل فيها". (5)

وقال سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: "إن الإمرة لا تزيد الإنسان في دينه خيراً". (6)

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة 7/ 569

(2) مصنف ابن أبي شيبة 7/ 570

(3) مصنف ابن أبي شيبة 7/ 570

(4) مصنف ابن أبي شيبة569/7

(5) مصنف ابن أبي شيبة 7/ 569

(6) مصنف ابن أبي شيبة 7/ 570

فصل

سؤال الإمارة والحرص عليها

إنّ نفس الإنسان تطمع في السيادة والشرف، وتميل نحو المال والجاه، ووتتشوّف للشهرة، ومن أعظم أسبابها، وأوسع أبوابها الإمارة، وهي مطلب يسحر الألباب وشهوة تمح في الوصول إليها أكثر النفوس، ولكنها سراب لامع، وباطنها سم ناقع، وأولها شرف وترف، وآخرها حسرة والندم، تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستصير ندامة وحسرة يوم القيامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة) [(1)]

ولقد حذر النبي ﷺ من طلب الإمارة والحرص عليها، وأخبر أن الذي يطلبها ويسعى في تحصيلها يوكل إليها ويسلب المعونة والتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وأما من دفعها ولم يحرص عليها ثم ابتلي بها فإن الله يعينه على أداء حقها.

ثبت في الصحيحين عن عبد الرحمن بن سمرة قال: **قال لي رسول الله ﷺ**: (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها)

وقوله (وكلت إليها) أي أسلمت إليها فضعفت عنها.

ولما كان طالب الإمارة والمتشوف لها مخذولا، مسلوبا المعونة والتوفيق، امتنع رسول الله ﷺ من تأميره لأنه إضرار بمصلحة الأمة.

عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: دخلت على رسول الله ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك الله، وقال الآخر: مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سأله، ولا أحدا حرص عليه» [(2)]

[(1)] رواه البخاري.

[(2)] رواه مسلم.

قال ابن الموصلي -رحمه الله-: "يقسم رسول الله ﷺ أنه لا يولى هذا الأمر أحدا طلبه، ولأن من طلبها لم يكن معه من الله تعالى عون، وكان مخذولا في ولايته، وإذا لم يكن معانا من الله عليها كان عاجزا عنها غير كفؤ لها لا محالة، ولا يجوز توليه غير الكفؤ". [1]

وقال الطرطوشي -رحمه الله-: "والسر فيه أن الولايات أمانات وتصرف في أرواح الخلائق وأموالهم، والتسرع إلى الأمانة دليل على الخيانة، وإنما يخطبها من يريد أكلها، فإذا ائتُمن خائناً على موضع الأمانات كان كمن استرعى الذئب على الغنم، ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها، لأنه إذا اهتُضِمت حقوقهم، وأُكلت أموالهم فسدت نياتهم". [2]

وعن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله ألا تَسْتَعْمِلني ؟ قال فضرب ﷺ بيده على منكِبي ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها) رواه مسلم، وفي رواية قال ﷺ: (يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم).

قال القرطبي المحدِّث[3]: معنى (إني أراك ضعيفاً) أي: ضعيفاً عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح رعيته الدنيوية والدينية، وأما من قَوِيَ على الإمارة، وعَدَلَ فيها، فإنه من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.
وقال العباس يا رسول الله ! ألا تستعملني فقال : (يا عباس يا عم رسول الله ﷺ ، نفس تُنجيها، خير من إمارة لا تحصيها). [4]

---

[1] حسن السلوك1/79.

[2] سراج الملوك1/51.

[3] - فيما نقله عنه السيوطي في شرحه على النسائي 6/255.

[4] مصنف ابن أبي شيبة 7/ 568.

فصل

متى يجوز طلب الإمارة

بعدما تبين لك خطر الإمارة، والنهي عن سؤال الإمارة، اعلم أن طلب الإمارة يجوز بل يتعين في بعض الحالات قد ذكرها العلماء رحمهم الله:

قال ابن دقيق العيد -رحمه الله-:" ظاهره -أي حديث عبد الرحمن بن سمرة-يقتضي كراهية سؤال الإمارة مطلقا، والفقهاء تصرفوا فيه بالقواعد الكلية، فمن كان متعينا للولاية وجب عليه قبولها إن عرضت عليه، وطلبها إن لم تعرض؛ لأنه فرض كفاية، لا يتأدى إلا به فيتعين عليه القيام به، وكذا إذا لم يتعين، وكان أفضل من غيره".[1]

وقال العظيم أبادي -رحمه الله-: "وأما إن كان طلب الولاية لتضييع القائم بها أو خوفه حصولها في غير مستوجبها ونيته في إقامة الحق فيها فذلك جائز له". [2]

وقد استدل من رأى جواز طلب الولاية والإمارة لمن خاف من تضييعها بوضعها في غير موضعها، أو من تسلق المفسدين إليها، بقول يوسف عليه السلام لعزيز مصر: {اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم}

قال ابن العربي -رحمه الله-: "سأل ذلك ليوصل إلى الفقراء حظوظهم لا لحظ نفسه ، وأنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ، لأنه لم يكن هنالك غيره".[3]

وقال القرطبي -رحمه الله-: "إن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرض متعين عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه، لَتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها، وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقول عليه السلام ، لعبدالرحمن : (لا تسأل ، الإمارة) " [4]

---

[1] إحكام الأحكام2/253.

[2] عون المعبود8/106.

[3] أحكام القرآن5/78.

[4] الجامع لأحكام القرآن9/212.

فصل

كل أمير مسؤول عمن تحت إمرته

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) [1]

قال ابن الملقن -رحمه الله-: "وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: (الأمير راع ومسئول عن رعيته) فمن ضيّع من استرعاه الله أمرهم، أو خانهم أو ظلمهم، فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة، فكيف يقدم على التحلل من ظلم أمة عظيمة".[2]

فالخلافة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، فالخليفة ومن ينوب عنه من الولاة والأمراء مأمورون بالحفاظ على الضروريات الخمس (الدين، النفس، العرض، العقل، المال) وذلك يكون بدعوة الناس وتعليمهم شرائع الإسلام، وتولية القضاة، وتعيين الأئمة، وحفظ الثغور، وإقامة العدل، ورفع المظالم، وتجييش الجيوش للجهاد، وغير ذلك.

ثم كل أمير عليه من المسؤولية بحجم وقدر إمرته والمهام التي كلف بها، والصلاحيات التي أعطيها، وعليه أن يكون في ذلك متقيا لربه، ناصحا في عمله، أمينا على منصبه، منكسرا لله، متواضعا للناس.

وليعلم أن الله سائله يوم القيامة عما استرعاه عليه، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع؟! » [3]

---

[1] متفق عليه.

[2] التوضيح32/449.

[3] رواه أحمد.

فصل

عقوبة الغاش لرعيته

روى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من امرئ يلي أمر المسلمين، ثم لم يجتهد لهم وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما من عبد استرعاه الله تعالى رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة) [1]

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) [2]

قال المناوي -رحمه الله-:" وأفاد التحذير من غش الرعية لمن قلد شيئا من أمرهم، فإذا لم ينصح فيما قلد أو أهمل فلم يقم بإقامة الحدود، واستخلاص الحقوق، وحماية البيضة، ومجاهدة العدو، وحفظ الشريعة، ورد المبتدعة والخوارج، فهو داخل في هذا الوعيد الشديد، المفيد لكون ذلك من أكبر الكبائر المبعدة عن الجنة.[3]

وقال الصنعاني -رحمه الله-:" والغش بالكسر ضد النصح، ويتحقق غشه بظلمه لهم بأخذ أموالهم، وسفك دمائهم، وانتهاك أعراضهم، واحتجابه عن خلتهم وحاجتهم، وحبسه عنهم ما جعله الله لهم من مال الله سبحانه المعين للمصارف، وترك تعريفهم بما يجب عليهم من أمر دينهم ودنياهم، وإهمال الحدود، وردع أهل الفساد، وإضاعة الجهاد، وغير ذلك مما فيه مصالح العباد، ومن ذلك توليته لمن لا يحوطهم، ولا يراقب أمر الله فيهم". [4]

---

[1] متفق عليه.

[2] رواه مسلم.

[3] فيض القدير5/488.

[4] سبل السلام2/666.

فصل

الحرص على البطانة الصالحة

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال (ما استخلف خليفة إلا له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله) .[1]

قال ابن الملقن -رحمه الله-: "البطانة: خواص الرجل، ووزراء الملك، وليس من خليفة ولا أمير إلا والناس حوله رجلان: رجل يريد الدنيا والاستكثار منها، فهو يأمره بالشر ويحضه عليه ليجد به السبيل إلى انطلاق اليد في المحظورات، ومخالفة الشرع، ويوهمه أنه إن لم يقتل ويغصب، ويخف الناس، لم يتم له شيء، ولا يخلو السلطان أن تكون في بطانته رجل يحضه على الخير، ويأمره به؛ لتقوم به الحجة عليه من الله في يوم القيامة، وهم الأمل، والمعصوم من الأمراء من عصمه الله، لا من عصمته نفسه الأمارة بالسوء". [2]

وقال -رحمه الله-:" ينبغي لمن سمع هذا الحديث أن يتأدب به ويسأل الله العصمة من بطانة الشروأهله، ويحرص على بطانة الخير وأهله، قال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التقوى وأهل الأمانة ومن يخشى الله. [3]
وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»" [4].

---

[1] رواه البخاري.

[2] التوضيح30/153.

[3] التوضيح22/576.

[4] اخرجه أبو داود .

فصل

الرجوع إلى أهل العلم واتخاذهم بطانة

قال ابن الموصلي -رحمه الله-:" قال الزهري -رحمه الله-: كان مجلس عمر رضي الله عنه غاصا بالعلماء والقراء، كهولا كانوا أو شبانا، وربما استشارهم، فكان يقول: لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يشير برأيه، فإن الرأي ليس على حداثة السن، ولا على قدمه، ولكن أمر يضعه الله حيث يشاء".

وقال سفيان الثوري -رحمه الله-: "أفضل السلاطين أولئك الذين يجالسون أهل العلم ويخالطونهم".

وقال القلقشندي -رحمه الله-: "وأمر الله بمجالسة أهل العلم والدين، وأولي الاخلاص في طاعة الله، والمتقين، والاستشارة في عوارض الشك والالتباس، والعمل بآرائهم، فإن الاستشارة لهم عين الهداية، وأمن من الضلال والغواية.[1]

وقال ابن جماعة -رحمه الله-: "وكذلك ينبغي للسلطان مشاورة العلماء العاملين الناصحين لله ورسوله وللمسلمين، فيعتمد عليهم في أحكامه، ونقضه وإبرامه، وجدير بملك يكون تدبيره بين نصيحة العلماء، ودعاء الصلحاء، أن يقوم عمده، ويدوم أمده".[2]

وقال القرطبي -رحمه الله-:" واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين".[3]

---

[1] مآثر الخلافة3/110.

[2] تحرير الأحكام1/73.

[3] تفسير القرطبي 4/250.

وقال ابن الأزرق -رحمه الله-: "قال ابن حزم: ويتخذ من وجوه الكتاب، والعلماء، والقضاة، والأمراء، قوما ذوي آراء سديدة، وكتمان للسر، فيجعلهم وزراءه الذين يحضرون مجلسه يلازمونه في التدبير لجميع ما قلده الله تعالى من أمور عباده".(1)

وقال الطرطوشي -رحمه الله-: "وأما العدل النبوي: فأن يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه، وهم الأدلاء على الله، والقائمون بأمر الله، والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله.

فاتخذ أيها الملك العلماء شعارا، والصالحين دثارا، فتدور المملكة بين نصائح العلماء، ودعوات الصلحاء، وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين أن يقوم عموده ويطول أمده! وكيف لا وقد قربهم الله في سلطانه واصطفاهم بخالص معرفته، فقال جل من قائل: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}. فبدأ بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأولي العلم وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام والموقعون عن الله تعالى.

إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا در هما وإنما ورثوا العلم، ففي تعظيمهم وتقريبهم امتثال لأمر الله وتعظيم لمن أثنى عليه، ويجب ترفيع مجالسهم وتتميز مواضعهم عن من سواهم، قال الله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}".(2)

---

(1) بدائع السلك348/1.

(2) سراج الملوك100.

فصل

تولية الأصلح

يجب على الإِمَام أَن يولي على كل عمل من أَعمال الْمُسلمين أصلح من يجده لذَلِك الْعَمَل، لأن هذا من النصح للمسلمين، وتولية من لا يصلح، أو من في المسلمين من هو أصلح منه، غش لدين الله وللمسلمين.

وقد دل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أن الولاية أمانة يجب ردها وأداؤها في مواضع من القرآن مثل ما تقدم ومثل قوله ﷺ لأبي ذر في الإمارة: (إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) [1]

قال ابن الموصلي -رحمه الله-: "فيجب على السلطان أن يبحث عمن يستحق الولاية من نوابه على الأمصار، من الأمراء الذين هم نوابه، والقضاة، ونحوهم، ومن أمراء الأجناد، ومقدمي العساكر، وولاة الأموال من الوزراء، والكتاب، والسعاة على الخراج والصدقات، وغير ذلك من أموال المسلمين.
وأن يستعمل عليهم أصلح من يجده، وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة، والمؤذنين، والمعلمين، وأمراء الحج والبرد، والعيون الذين هم القصاد، وحراس الحصون، والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن ونقباء العساكر، وعرفاء القبائل والأسواق".[2]

---

[1] رواه مسلم.

[2] حسن السلوك 1/83.

فصل
تقديم الصالح على الأصلح

قال ابن الموصلي -رحمه الله-: "وَإِن كَانَ أَحدهمَا أصلح تعيّنت ولَايَة الْأَصْلَح على الصَّالح، إِلَّا أَن يكون الْأَصْلَح بغيضاً إِلَى النَّاس، أَو محتقراً عِنْدهم، وَيكون الصَّالح محببا إِلَيْهِم، أَو عَظِيماً فِي أَعينهم، فَيقدم الصَّالح على الْأَصْلَح؛ لِأَن الإقبال عَلَيْهِ مُوجب للمسارعة إِلَى طواعيته، وامتثال أمره فِي جلب الْمَصَالح ودرء الْمَفَاسِد فَيصير حِينَئِذٍ أرجح مِمَّن يُنفر عَنهُ، لتقاعد أعوانه عَن المسارعة إِلَى مَا يَأْمر بِهِ من الْمَصَالح وَدفع الْمَفَاسِد، فَيصير الصَّالح بِهَذَا السَّبَب أصلح". [1]

فصل
حكم التولية لقرابة أو صداقة

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "ولا يقدم إلا الأصلح، فإن عدل عن الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما، أو عتاقة أو صداقة، أو موافقة في المذهب، أو البلد، أو الجنس، كالتركية، أو العربية، أوالعجمية، أو لرشوة، أو لضغن في قلبه على الأحق، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، ودخل فيما نهى الله عنه من قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون} ثم قال {واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة} فإن الرجل لحبه ولده، أو قريبه، قد يؤثره في بعض الولايات، أو يعطيه مالا يستحقه، فيكون قد خان أمانته ثم إن مؤدي الأمانة مع مخالفة هواه يثيبه الله فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله ويذهب ماله".[2]

---

[1] حسن السلوك1/88.

[2] السياسة الشرعية1/8.

فصل
تقديم الأمثل في حال فقد الأصلح

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "إذا عرف هذا، فليس عليه أن يستعمل إلا أصلح الموجود، وقد لا يكون في موجوده من هو أصلح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وأخذه للولاية بحقها، فقد أدى الأمانة، وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل المقسطين عند الله؛ وإن اختل بعض الأمور بسبب من غيره، إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله يقول: {فاتقوا الله ما استطعتم}، ويقول: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}. [1]

فصل
أركان الولاية

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "والولاية لها ركنان: القوة، والأمانة، كما قال الله تعالى {إن خير من استأجرت القوي الأمين}، وقال صاحب مصر ليوسف {إنك اليوم لدينا مكين أمين}، وقال تعالى في صفة جبريل {إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين}

* والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، والخبرة بالحروب، والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال، من رمي، وطعن، وضرب، وركوب، وكر وفر، ونحو ذلك، كما قال الله تعالى :{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل}

والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

[1] السياسة الشرعية 12/1.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنا قليلا، وترك خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي أخذها الله على كل من حكم على الناس، في قوله تعالى: {فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}. [1]

فصل

مدى اجتماع القوة والأمانة

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "واجتماع القوة والأمانة اليوم في الناس قليل، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يقول: اللَّهُمَّ أشكو جلد الكافر وعجز الثقة.

فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررا فيها.

فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع -وإن كان فيه فجور- على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أمينا؛ كما سئل الإمام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى؛ فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه؛ وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين. فيغزي مع القوي الفاجر". [2]

[1] السياسة الشرعية1/13.

[2] السياسة الشرعية1/15.

فصل
تحقيق التوازن

وقال بعض العلماء إذا كان المتولي الكبير يميل خلقه إلى اللين، فينبغي أن يستعمل من يميل خلقه إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة، فينبغي لنائبه أن يميل إلى اللين، ليعتدل الأمر.

ولهذا كان أبو بكر رضي الله عنه يؤثر استنابة خالد، وكان عمر يؤثر عزل خالد، واستنابة أبي عبيدة الجراح لأن خالدا كان شديدا كعمر، وأبو عبيدة كان لينا كأبي بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه ليكون أمره معتدلا، ويكون بذلك من خلفاء رسول الله ﷺ الذي هو معتدل كما قال ﷺ (أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة) وقال (أنا الضحوك القتال) وأمته وسط قال الله تعالى فيهم {أشداء على الكفار رحماء بينهم} وقال {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}.

فصل
مراقبة الولاة والعمال ومحاسبتهم

يجب على الخليفة أن يراقب الولاة ويسمع الشكاوى عليهم، ويُقومهم إن وَجد فيهم اعوجاجاً، ويحاسبهم إن رأى منهم ظلماً أو تفريطاً، ويتابع امتثالهم لما أوصاهم به، وقيامهم بما أمرهم به، وعلى الولاة أن يتابعوا من أمروهم على الدواوين والمراكز والهيئات، ويحاسبوهم على ظلمهم أو تفريطهم، فإن دوام المراقبة مع المحاسبة وسيلة إلى استقامة الولاة والعمال، وتركهم بلا محاسبة يفضي إلى وقوع الكثير من الخلل والتفريط منهم.

روى البيهقي عن ابن طاووس، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب قال: " أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل، أفقضيت ما علي؟ " قالوا: نعم، قال: " لا، حتى أنظر في عمله، أعمل بما أمرته أم لا".[(1)]

[(1)] شعب الإيمان 9/ 494.

وخطب عمر بن الخطاب فقال: ألا إني والله ما أبعث إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفسي بيده لأقصنه منه. فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيتك إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لمقصه منه؟ قال: أي والذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، أنا لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ، يقص من نفسه؟ «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم من حقوقهم فتكفروهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم» [1]

قوله رضي الله عنه: (ولا تمنعوهم من حقوقهم فتكفروهم) أي قد يحملهم منعهم من حقوقهم إلى الكفر والارتداد عن الدين واللحاق بالمشركين.

وقوله رضي الله عنه: (ولا تجمروهم فتفتنوهم) أي لا تحبسوا الجيوش وتمنعوها من القفول والرجوع فيكون ذلك فتنة لهم.

وقوله: (ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم) الغياض:جمع غيضة، وهي الشجر الملتف، لأنهم اذا نزلوها تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو، وهو نهي عن وضع الجيش في مكان يتسبب في هلاكهم.

وقال ابن ذي الوزارتين -رحمه الله-: "كان عمر رضي الله تعالى عنه ملازما للحج في سني خلافته كلها، وكان من سيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سنة في موسم الحج، ليحجزهم بذلك عن الرعية، ويحجز عنهم الظلم، ويتعرف أحوالهم في قرب، وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم". [2]

قال الماوردي -رحمه الله-: "والملك في أشد الحاجة إلى تفقد أربع طبقات، ولا يستغني عن تفقد أحوالهم بنفسه لأنهم عماد مملكته، وقوام دولته:

فالطبقة الأولى: الوزراء لأنهم خلفاؤه وعلى أيديهم تصدر أفعاله فإن أحسنوا نسب إليه إحسانهم وإن أساءوا أضيف إليه مساوئهم مع عظم الضرر الداخل عليه في مملكته والقدح الموهن لدولته.

---

[1] رواه أحمد.

[2] تخريج الدلالات السمعية262/1.

والطبقة الثانية: القضاة والحكام، الذين هم موازين العدل بتفويض الحكم إليهم، وحراس السنة باتباعها في أحكامهم، وبهم ينتصف المظلوم من الظالم في رد ظلامته، والضعيف من القوي في استيفاء حقه، فإن قل ورعهم وكثر طمعهم، أماتوا السنة بأحكام مبتدعة، وأضاعوا الحقوق بأهواء متبعة.

والطبقة الثالثة: أمراء الأجناد الذين هم أركان دولته وحماة مملكته والذابون عن حريم رعيته والمالكون أعنة أجناده والعاطفون بهم على صدق نصرته وموالاته فإذا استقامت له هذه الطبقة استقام له جميع أعوانه.

والطبقة الرابعة: عمال الخراج الذين هم جباة الأموال وعمار الأعمال والوسائط بينه وبين رعيته فإن نصحوا في أمواله وعدلوا في أعماله توفرت خزانته بسعة الدخل وعمرت بلاده ببسط العدل".[1]

---

[1] درر السلوك100/1.

الباب الثاني

أهم الخصال التي تستقيم بها أمور الناس

اعلم أن الناس تبع لملوكهم وأمرائهم، فإن من طباع الناس الاقتداء والتشبّه، ومن عادتهم تقليد الأقوى في الخير أو الشر، ولما كان الأمراء والولاة لهم السلطة والكلمة النافذة في المجتمع، فإنّهم يصبحون محط أنظار الناس وموضع اهتمامهم، يقتدون بهم، ويسيرون خلفهم، ويتخلقون بأخلاقهم، وهذا مقام خطير، يوجب الحذر والتيقظ، ومراقبة النفس في كل تصرفاتها.

قال ابن الموصلي -رحمه الله-: "الناس تبع لملوكهم: روى أصحاب التواريخ في كتبهم: أن الناس كانوا إذا أصبحوا في أيام الحجاج يتسألون من قتل البارحة، ومن صلب، ومن جلد، ومن قطع وفي أمثال ذلك.

وكان الوليد بن عبد الملك صاحب ضياع، واتخذ مصانع، فكان الناس يتسألون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع، وشق الأنهار وغرس الأشجار.ولما ولي سليمان بن عبد الملك، وكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يتحدثون في الأطعمة الرفيعة ويتخذونها، ويتوسعون في الأنكحة والسراري، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز، كان الناس يتسألون في زمانه كم تحفظ من القرآن، وكم وردك، وكم يحفظ فلان، وكم يصوم وأمثال ذلك".[1]

وقال ابن الأزرق -رحمه الله-: "إن صلاح السلطان وفساده صلاح الرعية وفسادها، وعن سفيان الثوري أنه قال لأبي جعفر المنصور: إني لأعلم رجلا إن صلح صلحت الأمة، وإن فسد فسدت الأمة. قال: ومن هو ؟

قال: أنت. قلت: ويظهر ذلك باعتبارين: أحدهما: في الدين، فقد قالوا: الناس على دين الملك، فإن صلح منه بالعدل تعدى إلى الرعية، وإن فسدت منه بالجور، فشى فيهم ضرره كذلك.

الثاني: في الدنيا، فإن بصلاحه تفتح فيها بركات الأرض والسماء، وبفساده يظهر نقيض ذلك برا وبحرا قال الله تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض }، وقال تعالى {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس}.[2]

وروى البيهقي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حمل إليه مغانم العراق عند افتتاحها، وما أصاب من كنوز كسرى، ورأى ما فيها من الجواهر النفيسة، جعل يتعجب منها، ويقول إن الذي أدى هذا لأمين فقال له عبد الرحمن بن عوف: أنا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله، وهم أمناؤك، فما دمت مؤديا للأمانة أدوها، ومتى رتعت رتعوا.

---

[1] حسن السلوك 68.

[2] بدائع السلك1/86.

فصل

في الـعـــــدل

إن أول الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذي هو قوام الملك، ودوام الدول، ورأس كل مملكة.

واعلم أرشدك الله تعالى أن الله تعالى أمر بالعدل فقال:{إن الله يأمر بالعدل والأحسان وإيتاء ذي القربى} والعدل ميزان الله في الأرض، الذي به يؤخذ للضعيف من القوي وللمحق من المبطل.

والعدل سبب في بقاء الدول وقوتها واستقرارها، والظلم سبب في زوال الدول ودمارها.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، أكثر مما تستقيم مع الظلم ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي ﷺ: (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم). [1]

فصل

ما ورد في فضيلة الإمام العادل

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله) وذكر أولهم: (إمام عادل) [2] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) [3]

---

[1] مجموع الفتاوى28/146.

[2] متفق عليه.

[3] رواه مسلم.

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط، متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال) [1]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من إجلال الله، إكرام ذي الشيبة، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط) [2]وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الإمام العادل لا ترد دعوته) رواه أحمد.

فصل

تحـــريم الظـــلم

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، عن الله تبارك وتعالى قال: (يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكـم محرما، فلا تظالموا) [3]

وقال رسول الله ﷺ: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) [4]

عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رجلان ما تنالهما شفاعتي إمام ظلوم غشوم، وآخر غال في الدين مارق منه) [5]

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه أبو داود.

[3] رواه مسلم.

[4] متفق عليه.

[5] رواه الطبراني بسند حسن.

* أقوال السلف في الظلم:

- **قال معاوية رضي الله عنه**: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصرا إلا الله.

- **وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله** بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتب إليه: حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم.

- **ودخل طاوس اليماني على هشام بن عبد الملك فقال له**: اتق يوم الأذان؛ قال هشام، وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: {فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين} فصعق هشام، فقال طاوس: هذا ذل الصفة فكيف المعاينة؟.

- **وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم، وهو والي أرض فارس**: "يا ربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره".

- **وكان شريح القاضي يقول**: "سيعلم الظالمون حق من انتقصوا، إن الظالم لينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصر والثواب".

فصل

بعض آثار الظلم

قال رجل عند أبي هريرة: إن الظالم لا يظلم إلا نفسه، فقال أبو هريرة: كذبت، والذي نفس أبي هريرة بيده، إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

قال وهب بن منبه -رحمه الله-: "إذا عمل الوالي بالجور أو هم به أدخل الله النقص في أهل مملكته من الزرع والضرع وكل شيء وكذلك إذا هم بالعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته".

فصل
أقوال الحكماء في العدل والجور

العدل ميزان الله في أرضه، وضعه للخلق ونصبه للحق، فمن خالفه في ميزانه، وعارضه في سلطانه، فقد عرّض دينه للخبال، ودولته للزوال، وعزه للذل، وكثرته للقل.

وقيل: كل دولة بني أساسها على العدل أمنت الإنعدام وسلمت الإنهدام.

وقال بعض الحكماء: لا يكون العمران حيث يجور السلطان.

وقيل: العدل أقوى جيش، والأمن أهنأ عيش.

وقيل: الظلم مسلبة للنعم مجلبة للنقم.

وقال بعضهم: الدول إذا افتتحت بالعدل امتدت آمادها وثبت أعمادها.

وقيل: عدل السلطان لدينه أحوط، ولدنياه أضبط، ولأوليائه أثبت، ولأعدائه أكبت.

فصل
في المشورة

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "لا غنى لولي الأمر عن المشاورة؛ فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ فقال تعالى: {فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين}، وقد روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: «لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» . وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي: من أمر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة".[1]

[1] مجموع الفتاوى.

وقال الزهري-رحمه الله-: "كان مجلس عمر مغتصا من القراء شبانا كانوا أو كهولا، وربما استشارهم فيقول: لا يمنع أحدكم أن يشير برأيه؛ فإن العلم ليس على قدر السن، ولكن الله يضعه حيث شاء".

قال بدر الدين ابن جماعة-رحمه الله-: "يستحب أن يشاور أهل التجارب والرأي فيما أعضل، ويرجع إلى ذوي الحزم والعلم فيما أشكل، ويأخذ ما عندهم، فإن ذلك أقرب إلى الحزم والظفر، وأبعد عن الخطأ والخطر. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: {وشاورهم في الأمر} .

قال الحسن-رحمه الله-: "كان والله غنيا عن مشاورتهم، ولكن أراد أن يسن للأمة، وعنه: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم. وقيل: من كثرت مشاورته، حمدت إمارته"

ولأن في المشورة تطييب القلوب، واجتماع الكلمة، وظهور الحكم، ورب رأي صحيح لا يبديه صاحبه قبل أن يسأل عنه، ولا سيما مع الملوك والعظماء، لما في النفوس من مهابتهم وتعظيمهم، ولأن الأدب معهم يقتضي ذلك، فإذا بسطوا بساط المشاورة انشرح الصدر لإظهار الرأي".[1]

فصل

الرفق واللين

الرفق: لين الجانب ولطافة الفعل، وهو ضد العنف والقسوة.

قال تعالى: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}.

قال الطرطوشي -رحمه الله-: "وفي الآية أن الفظاظة تنفر الأصحاب والجلساء، وتفرق الجموع والحشم، وإنما الملك ملك بجلسائه وأصحابه وأتباعه وحشمه، ولتكن كما قال الله: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}

وقد يبلغ باللين ما يبلغ بالغلظة، ألا ترى أن الرياح تهول أصواتها فيتداخل لها الشجر وتنعطف الأفنان والأغصان، وفي الفرط تنكسر الأغصان، والماء بلينه في أصول الشجر يقلعها من أصلها.

(1) تحرير الأحكام 1/169.

فالإنسان أحرى أن يستمال بلين القول وحسن المنطق، فإذا أردت أن تنتقم ممن يسيء إليك فكافئه بكل كلمة سوء قالها كلمة جميلة وحسن ثناء عليه".[1]

وقال ﷺ: (يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطي على ما سواه) [2]

وقال ﷺ : (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه) [3]

وقال رسول الله ﷺ : (اللّهُمَّ من ولي من أمر أمتي شيئا، فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا، فرفق بهم، فارفق به) [4]

قال أبو عبد الله القلعي: "وهذا عام في كل وال، ولايته عمت أو خصت، قلت أو كثرت، عظمت أو صغرت".

فصل

التوازن في الرفق والشدة

قال شمس الدين ابن الأزرق: "لا يفهم من مدح الرفق الأخذ به في كل موضع، بل حيث قال زياد لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد! قال: أن تضع الأمور مواضعها، الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه".

قال الغزالي: "وهذا إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين، والفظاظة بالرفق، كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

[1] سراج الملوك ص: 98.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه مسلم.

[4] رواه مسلم.

والمعرفة بوضع الأمور مواضعها يحتاج إلى فضل تمييز، ومن ثم قال الغزالي: الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة فليكن ميله إلى الرفق فإن النجع معه في الأكثر. [1]

وقال الغزالي -رحمه الله-: فالمحمود وسط بين العنف واللين، كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسنا، كما أن الرفق في محله حسن.[2]

فصل
العفو وكظم الغيظ

قال تعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين}

وقال تعالى: { والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون}، قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (أي: سجيتهم وخلقهم وطبعهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل) [3]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله عز وجل من جرعة غيظ، يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى) [4]

---

[1] بدائع السلك 475/1

[2] إحياء علوم الدين 186/3

[3] رواه مسلم.

[4] رواه أحمد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوه عصمهم الله وخضع لهم عدوهم". [(1)]

وقال معاوية رضي الله عنه: "عليكم بالحلم والاحتمال حتى تُمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال". [(2)]

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: "أفضل أخلاق المؤمن العفو". [(3)]

وقال إبراهيم النخعي -رحمه الله-: "كان المؤمنون يكرهون أن يُستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا". [(4)]

فصل
تقديم العفو على الانتقام

قال شمس الدين ابن الأزرق: "قال تعالى:{وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} **فيه مقامان**: **الأول** فيما يعم السلطان وغيره: **أحدهما**: أن العافي أجره على الله تعالى، والمنتصر قد استوفى حقه قال الله تعالى {فمن عفا وأصلح فأجره على الله} قال ابن العربي: قوله: {فأجره على الله} كلمة لا يوازيها شيء؛ لأن الذي للعبد عهد الله، ومن الله، وهو خير له مما يأخذه بنفسه، ويفعله باختياره.

الثاني: أن المتخلق بالعفو مقتد بالنبي ﷺ، وسلك على نهج الاتباع له، وكفى به أسوة.

---

(1) ذكره البخاري.

(2) إحياء علوم الدين3/ 184.

(3) الآداب الشرعية1/ 71.

(4) تفسير ابن كثير 7/ 210.

قالت عائشة رضي الله عنها والله ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله. [1]

المقام الثاني: من جهة ما يخص السلطان، فتقديم العفو سبيل إلى استخلاص قلوب ذوي الجناية له، وإيناس نفوسهم من وحشة العصيان، ولا يخفى ما في ذلك من السياسة العائدة على الدولة بالنفع العظيم". [2]

فصل

التوازن بين العفو والانتقام

قال أبو عبدالله القلعي -رحمه الله-:" قال بعض البلغاء: لا يكن عفوك وإغضاؤك سببا للجراءة عليك، وعلة الإساءة إليك؛ فإن الناس رجلان: عاقل يكتفي بالعذل والتأنيب، وجاهل يحوج إلى الضرب والتأديب.

وقيل: من عفا عمن يستوجب العقوبة، كان كمن عاقب من يستوجب المثوبة". [3]

وقال شمس الدين ابن الأزرق: "يصير الإنتقام مطلوبا في موضعين:

الموضع الأول: حيث يكون عجزا، ومهانة نفس، وذلك هو الذل الذي تأنف منه ذوو الهمم العلية، وقد قالوا في قوله تعالى {والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون} كانوا يكرهون أن يذلوا، فإذا قدروا عفوا فمدحوا على العفو بعد قدرة، لا على عفو بعد ذل ومهانة.قال ابن قيم الجوزية: وهذا هو الكمال الذي مدح الله به نفسه في قوله تعالى: {وكان الله عفوا قديرا}

الموضع الثاني: حيث يترتب على العفو مفسدة تربو على مصلحته شرعا أو سياسة.

ومن أمثلته: عقاب من استخف بالسلطان، كما يروى أن رجلا جاء إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: احملني، والله لأنا أفرس منك ومن أبيك، وعنده المغيرة بن شعبة، فحسر عن ذراعه وصك به أنف الرجل فسال الدم، فجاء قومه إلى أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- ولاموه، فقالوا: أقدنا من المغيرة!

---

[1] رواه البخاري.

[2] بدائع السلك1/469.

[3] تهذيب الرياسة1/214.

فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله؟! أنا لا أقيدكم منه.

قال ابن قيم الجوزية: فرأى أبو بكر رضي الله عنه أن ذلك انتصار من المغيرة لله ولرسوله وللعز الذي وعد الله المؤمنين".[1]

الوزعة : جمع وازع، وهو الذي يكف الناس ويحبس أولهم على آخرهم . أراد : أقيد من الذين يكفون الناس عن الإقدام على الشر [2].

فصل

الغضب خطره وعواقبه

الغضب: هو ثوران دم القلب لقصد الانتقام.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قلت: يا رسول الله، ما يمنعني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب». [3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: مرني بأمر.قال: (لا تغضب) فردد مرارا كل ذلك يرجع، فيقول: (لا تغضب) [4]

قال الخطابي: "معنى قوله (لا تغضب) اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه". [5]

وقال ابن رجب: "فهذا يدل على أن الغضب جماع الشر، وأن التحرز منه جماع الخير". [6]

---

[1] بدائع السلك1/470.

[2] النهاية في غريب الحديث5/393.

[3] رواه ابن حبان.

[4] رواه البخاري.

[5] فتح الباري لابن حجر 10/ 520.

[6] جامع العلوم والحكم 1/ 362.

وقال ابن التين:" جمع ﷺ في قوله (لا تغضب) خير الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يؤول إلى التقاطع، ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين".[1]

وقال شمس الدين ابن الأزرق: "من أعظم مضرات الغضب الباطنة: آفتان:

الآفة الأولى: ما يكسب القلب من صفات الذم، والظلم، والإستخفاف، وتحقير الخلق، وإرادة الشر، وما في معنى ذلك.

والآفة الثانية: استيلاء الشيطان به، وتلاعبه بصاحبه، كما يلعب الصبي بالكرة.

وقال بعضهم: أول الغضب جنون، وآخره ندم.

وقيل: ينبغي للسلطان العجول أن يحذر الطيش والغضب؛ فإن السلطان الغضوب المفرط في العقوبة يهلك نفسه، وسلطانه، ورعيته.[2]

فصل

التواضع فضله وثمرته

قال الله تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا}

قال ابن القيم -رحمه الله-: أي: سكينة ووقارا متواضعين غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين. وقال الحسن: علماء حلماء[3].

وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين }

---

[1] فتح الباري لابن حجر 10/ 520.

[2] بدائع السلك1/464.

[3] مدارج السالكين3/ 108.

قال ابن كثير -رحمه الله-: هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه، متعززا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}.[1]

وقال تعالى: { تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين}
قال ابن كثير: يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوا في الأرض، أي: ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم، ولا فسادا فيهم.[2]

قال ﷺ: (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل) [3]
وعن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ، **قال في خطبته**: (إن الله عز وجل أوحى إلي: أن تواضعوا، لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد) [4]

* أقوال السلف والعلماء في التواضع:

- **قالت عائشة رضي الله عنها**: "إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة: التواضع". [5]

- **وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه**: "لا يبلغ عبد ذرى الإيمان، حتى يكون التواضع أحب إليه من الشرف".

- **وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال**: "يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله".

- **وقال ابن معاذ**: "حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامات الصالحين وفرارك منهم من علامات المنافقين".

---

[1] تفسير ابن كثير 3/ 136.
[2] تفسير ابن كثير 6/ 258.
[3] رواه مسلم.
[4] رواه مسلم.
[5] رواه النسائي في السنن الكبرى 10/ 405.

- **وقال قتادة**: "من أعطي مالا، أو جمالا، وثيابا، وعلما، ثم لم يتواضع كان عليه وبالا يوم القيامة".

- **وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة،** فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، يقول افسحوا للأمير.

- **وقال يحي ابن أبي كثير**: "رأس التواضع ثلاث أن ترضى بالدون من شرف المجلس وأن تبدأ من لقيته بالسلام وأن تكره من المدحة والسمعة والرياء بالبر".

فصل
الحذر من الكبر والعجب

قال أبو العباس القرطبي: "إعجاب الرجل بنفسه، هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان، مع نسيان مِنّة الله تعالى".[1] وقال الجاحظ: "الكبر: استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له". [2]

قال الله تعالى: { سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}.
قال القاسمي -رحمه الله-: "أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، والمتكبرين على الناس، أي: فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل". [3]

---

[1] طرح التثريب 8/ 168.
[2] تهذيب الأخلاق ص 32.
[3] محاسن التأويل5/182.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر! فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق وغمط الناس) [1]

- **فالكبر نوعان**: كبر على الحق، وكبر على الخلق.

فأما الكبر على الحق فهو بدفعه ورده وعدم قبوله الانقياد له، **وأما الكبر على الخلق** فهو باحتقارهم واستصغارهم.

قال الله تبارك وتعالى: {ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها} .

يقول العز بن عبد السلام: "زجره عن التطاول الذي لا يدرك به غرضا، أو يريد: كما أنك لا تخرق الأرض ولا تبلغ الجبال طولا، فلذلك لا تبلغ ما تريده بكبرك وعجبك".[2]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **قال رسول الله ﷺ**: (إنما المهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه).

قال الملا علي القاري:" (وإعجاب المرء بنفسه) أي: باستحسان أعمالها، وأحوالها أو مالها، وجمالها، وسائر ما يتوهم أنه من كمالها". [3]

قال الطرطوشي -رحمه الله-:" من الصفات الذاتية التي زعم الحكماء أنه لا تدوم معها مملكة: (الكبر والإعجاب). اعلموا أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، لأن الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة، فالكبر يكسب المقت ويمنع من التألف، وقال الأحنف بن قيس: "ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه، وقالت الحكماء: "وقد يدوم الملك مع معظم النقائص، فرب فقير ساد قومه، ورب أحمق ساد قبيلته، ولا

---

[1] رواه مسلم.

[2] تفسير العز بن عبد السلام2/ 219.

[3] مرقاة المفاتيح 8/ 3199.

يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب السيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين، فقال سبحانه وتعالى: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا } فقرن الكبر بالفساد فمنعا من دخول الجنة.

واعلم أن الكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله، ومن أبغضته بطانته كان كمن غص بالماء، ومن كرهته الحماة تطاولت إليه الأعداء، وأما الإعجاب فيحمله على الاستبداد بالرأي وترك مشاورات الرجال". [1]

وقال الماوردي -رحمه الله-: وللكبر أسباب، فمن أقوى أسبابه: علو اليد، ونفوذ الأمر، وقلة مخالطة الأكفاء. وللإعجاب أسباب، فمن أقوى أسبابه: كثرة مديح المقربين، وإطراء المتملقين، الذين استبضعوا الكذب والنفاق، واستصحبوا المكر والخداع. [2]

فصل

الحذر من الكذب

قال شمس الدين بن الأزرق: "قال النووي -رحمه الله-: الكذب من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، وإجماع الأمة منعقد على تحريمه، مع النصوص الواردة فيه كتابا وسنة.

قلت: والوارد من ذلك وعيدان:

الوعيد الأول: شق شدقيه من لدن مماته إلى يوم القيامة، ففي الصحيح عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت الليلة رجلين أتياني) إلى قوله: (قالا لي: أما الذي رأيته يشق شدقه، فكذاب يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة).

---

[1] سراج الملوك.

[2] درر السلوك1/61.

الوعيد الثاني: ترديد الويل عليه دلالة على قبح جنايته، قال ﷺ: (ويل للذي يحدث فيكذب، ليضحك به القوم، ويل له ويل له) [1]

المسألة الثانية: وفيه للسلطان وعيدان:

الوعيد الأول: إعراض الله تعالى عنه، مع ماله من أليم العذاب، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر).

الوعيد الثاني: منعه من دخوله الجنة، فعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزاني، والإمام الكذاب، والعائل المزهو) [2]

ومن مفاسده باعتبار السلطان محذوران:

المحذور الأول: إفضاؤه إلى عدم الوثوق بوعد السلطان ووعيده، وقد قال الحكماء خراب البلاد وفساد العباد مقرون بإبطال الوعد والوعيد من الملوك.

المحذور الثاني: إنذاره بما يعود بخراب الدولة".[3]

فصل
الحذر من الحسد

الحسد: هو تمني زوال النعمة عن صاحبها.

والفرق بين الحسد والغبطة: قال الرازي: إذا أنعم الله على أخيك بنعمة؛ فإن أردت زوالها فهذا هو الحسد، وإن اشتهيت لنفسك مثلها فهذا هو الغبطة.[4]

---

(1) رواه أحمد.

(2) رواه البزار بسند جيد.

(3) بدائع السلك1/487.

(4) تفسير الرازي3/ 646.

قال تعالى: {قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد} .

قال الحسين بن الفضل -رحمه الله-: "إن الله جمع الشرور في هذه الآية، وختمها بالحسد؛ ليعلم أنه أخس الطبائع"[(1)]

وقال تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق}.

قال القرطبي -رحمه الله-: "والحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ... ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل". [(2)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب).

قال المناوي:" فإن الحسد يأكل الحسنات": أي يذهبها ويحرقها ويمحو أثرها (كما تأكل النار الحطب) أي اليابس، لأنه يفضي بصاحبه إلى اغتياب المحسود وشتمه، وقد يتلف ماله، أو يسعى في سفك دمه، وكل ذلك مظالم يقتص منها في الآخرة، ويذهب في عوض ذلك حسنات".[(3)]

---

(1) الكشف والبيان10/ 340.

(2) تفسير القرطبي 5/ 250.

(3) فيض القدير3/ 125.

فصل

الحذر من الإغراق في الشهوات

قال تعالى: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا} .

قال ابن كثير -رحمه الله-: "لما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره -ذكر أنه {خلف من بعدهم خلف} أي: قرون أخر، {أضاعوا الصلاة} -وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد- وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أي: خسارا يوم القيامة".[1]

وقال النبي ﷺ: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) [2]

أخبر ﷺ أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره، والطريق إلى النار اتباع الشهوات.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فإن عاجلها ذميم، وآجلها وخيم"

قال أبو جعفر المنصور: "ما زال أمر بني أمية مستقيما حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصدا للشهوات وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله تعالى وأمنا لمكره، فسلبهم الله تعالى العز ونقل عنهم النعمة".

وسئل بعض الملوك بعد أن سلبوا المملكة: ما الذي سلب عزكم وهدم ملككم؟

فقال: شغلتنا لذاتنا عن التفرغ لمهماتنا، وظلم عمالنا رعيتنا فانفسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا، وقصدنا عدونا فقل ناصرنا، وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الأخبار عنا.

---

[1] تفسير ابن كثير.

[2] متفق عليه.

فصل

الحذر من تتبع عورات الناس

عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورات المسلمين، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فيفضحه ولو في جوف رحله) [1]

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم) [2]

وعن معاوية رضي الله عنه قال: **سمعت رسول الله ﷺ يقول**: (إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم) [3]

قال شرف الدين الطيبي -رحمه الله-: "فإن الأمير إذا كان ذا دغل ودخل في قلبه من الرعية، ابتغى عيوبهم ويتهمهم بالمعايب، فيتجسس أحوالهم ومفاسدهم؛ فإن الإنسان قلما سلم من عيب.

فلو عاملهم بكل ما قالوا وفعلوا، لاشتدت عليهم الأحوال، بل ينبغي أن يستر عليهم عيوبهم ويعفو عنهم".[4]

وقال الملا علي قاري -رحمه الله-: "إن طلب عيوبهم، وتجسس ذنوبهم، واتهمهم في تفحص أحوالهم، (أفسدهم) أي: أفسد عليهم أمور معاشهم، ونظام معادهم، لأن الإنسان قلما يخلو عن ذم، فلو أدبهم لكل قول وفعل بهم لشق الحال عليهم، بل ينبغي له ما أمكنه أن يستر عليهم، ألا ترى ما تقدم في الحدود من تلقين المعترف بالذنب دفعا لدرء الحد عنه".[5]

---

[1] رواه الترمذي.

[2] رواه أحمد.

[3] رواه أبو داود.

[4] شرح المشكاة8/2582.

[5] مرقاة المفاتيح6/2413.

فصل
الاحتجاب عن الناس

عن عمرو بن مرة أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره) فجعل معاوية رجلا على حوائج الناس. [1]
وقال ﷺ: (من ولي أمرا من أمر الناس، ثم أغلق بابه دون المسكين، والمظلوم أو ذي الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى دونه أبواب رحمته عند حاجته، وفقره أفقر ما يكون إليها) [2]

وكان عمر رضي الله عنه إذا استعمل رجلا أشهد عليه رهطا من الأنصار وغيرهم، قال: يقول: "إني لم أستعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم، ولكني استعملتك عليهم لتقسم بينهم بالعدل وتقيم فيهم الصلاة، واشترط عليه أن لا يأكل نقيا ولا يلبس رقيقا، ولا يركب برذونا ولا يغلق بابه دون حوائج الناس". [3]

قال الطرطوشي -رحمه الله-: "قال الأوزاعي: يهلك السلطان بالإعجاب، والاحتجاب. وأما الاحتجاب فهو أدخل الخلال في هدم السلطان، وأسرعها خرابا للدول، لأن الحجب موت حكمي فتعبث بطانته بأرواح الخلائق، وحريمهم، وأموالهم، لأن الظالم قد أمن أن لا يصل المظلوم إلى السلطان.
ومعظم ما رأينا في أعمارنا وسمعنا من دخول المفاسد على الملوك في حجبهم عن مباشرة الأمور، ولا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة".[4]

---

(1) رواه أبو داود والترمذي.
(2) رواه أحمد.
(3) أخرجه ابن أبي شيبة.
(4) سراج الملوك 57/1.

وقال ابن الموصلي -رحمه الله-: "وأعظم ما يكون الفساد على الوالي في مملكته، من اتخاذ الحجاب، وإرخاء الحجاب، فإن حاشية الملك بسبب ذلك تصير ملوكا، ويكذبون على لسان الملك ويمنعون المظلوم من شكاية مظلمته، ويفعلون ما أرادوا".(1)

وقال أبو عبد الله القلعي -رحمه الله-: "وليس المراد بترك الحجاب أن يبرز السلطان إلى العوام على الدوام في الطرقات، ويباشر بنفسه أحوال الرعية في جميع الأوقات، إنما بذلك ألا يحجب عن مجلسه خواص الناس وذوي المروءات، وأرباب الشرف، وأن يأذن للعلماء وأهل الدين إذا استأذنوا عليه لإبلاغ نصح يرجع صلاحه إليه وإلى كافة المسلمين، وأن يصغي بنفسه إلى مخاطبتهم، ويأذن لكلامهم ومحاوراتهم، ولا يكل ذلك إلى وزرائه وحجابه وسائر من يعتمد عليه من نوابة؛ فإن أهل العلم والفضل وذوي الرياسة والنبل قد يأنفون من رفع حاجتهم إلى من لعله دونهم على الحقيقة في القدر والمنزلة، وإن كان الملك قد أهله من الرياسة لما هو أهله، وربما استشعر بذلك عليهم شرفا وفخرا، وشمخ بأنفه عليهم صلفا وكبرا".(2)

فصل
الخصال المحمودة في الأمير

قال الطرطوشي -رحمه الله-: "قد اتفقت العلماء والحكماء فقالوا: أيها الملك إن قَصرت قوتك عن عدوك فتخلّق بالأخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها، فإنها أنكأ فيه من الغارة الشعواء.

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان: صف لي عمر بن الخطاب. فقال: كان عالماً برعيته، عادلاً في أقضيته، عارياً من الكِبر، قبولاً للعُذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحرياً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير محاب للقوي، ولا بجاف للقريب.

(1) حسن السلوك1/110.

(2) تهذيب الرياسة1/247.

وقال العلماء والحكماء:

الصدق يوجب الثقة، والأمانة توجب الطمأنينة.

والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة.

وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباعدة.

والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة.

والكِبْر يوجب المقت، والتواضع يوجب الرفعة.

والجود يوجب الحمد، والبخل يوجب المذمة.

والتواني يوجب التضييع، والجد يوجب رجاء الأعمال.

والهُوَيْنَا توجب الحسرة، والحزم يوجب السرور.

والتغرير يوجب الندامة، والحذر يوجب العذر.

وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة.

وبالتأني تسهل المطالب، وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة، وبخفض الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه.

وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتؤدة يستحق اسم الكرم.

وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل.

واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة، والفظاظة تخلع صاحبها ثوب القبول.

ومن صِغَر الهمة الحسد للصديق على النعمة.

والنظر في العواقب نجاة.

ومن لم يحلم ندم، ومن صبر غنم.

ومن سكت سَلِم، ومن خاف حذر.

ومن أطاع هواه ضل.

وإذا جهلت فاسأل، وإذا زللت فارجع، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فاقلع.

والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة، والتوفيق أصله العقل وثمرته النُّجْح، والتوفيق والاجتهاد زوجان، فالاجتهاد سبب والتوفيق ينجح بالاجتهاد. قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} .وأجمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات قالوا: لا تُحمِّل قلبك ما لا يطيق، ولا تعمل عملاً لا ينفعك، ولا تغتر بامرأة وإن طالت صحبتها، ولا تثق بمال وإن كثر".[1]

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

---

[1] سراج الملوك1/58.